-١١-

محب الدين الخطيب
من أعلام الاسلام فى هذا العصر
١٨٨٦ - ١٩٦٩

كان مولد الخطيب: محب الدين بن محمد أبى الفتح فى دمشق وفى الربع الأخير من القرن الماضى، وقد عاش هذا المحب لأمته مجاهدا اعداءها ساعيا الى تحريرها من الجهل والفساد والمظالم المتعاقبة بقلمه وايمانه وعلمه، ولم يكن الخطيب محبا لدينه فحسب بل محبا للغته وتراثها وآثارها، داعيا للمحافظة عليها من عبث المفسدين بالعامية والمضللين بأن الفصحى صعبة فى قواعدها والتعبير فيها، كما كان معتزا بالتراث عاملا على نشره وظهوره ولكم حقق وعلق على مخطوط بعد مخطوط حتى توفاه الله.

وقد تلقى الخطيب: محب الدين تعليمه الاول فى دمشق وكان من معلميه شيوخ الدين واللغة والتاريخ: جمال الدين القاسمى، وطاهر الجزائرى، وعبد الرزاق البيطار ولم تكن تفوته ندوة من ندوات هؤلاء المصلحين المخلصين مستمعا لمطارحاتهم مشاركا فى بعض

الموضوعات التى يهمه أمرها ويخوض الناس فيها بسر وحذر، فيلقى التشجيع والتقدير على ان ما كان يؤسفه ويشغل باله هو قصة « تتريك العرب » لتفتيت قوميتهم وتمزيق وحدتهم حتى ان المستبدين أحلوا لغتهم محلها وجعلوا معلم العربية تركيا ولم يسلم من هذا البلاء إلا المدارس التبشيرية والطائفية والأهلية وحلقات الدين فى المساجد، فكان محب الدين يتدارس هذا الامر الخطير مع لداته واقرانه الذين اسسوا جمعية « النهضة العربية » لتكون ملتقى لمن يريدون أن تنبعث لغتهم وقوميتهم وان تعود الى مجدها ومكانتها.

ولما مضى محب الدين الى عاصمة الخلافة لدراسة الحقوق اتيح له ان يلقى انداده من الغيارى على العربية الثائرين على الفساد والاستبداد التواقين الى الحرية والكرامة الوطنية، حتى انهم تعاهدوا على أن يتكلموا الفصحى فيما بينهم واذا عادوا الى الوطن تطوعوا لتعليم العربية فى المدارس التى يرحب أهلها بفكرتهم، على أن تعليم العربية كان الهم الاول لمحب الدين الخطيب غير ان الرقابة اشتدت عليه فضاق بحياته وانطلق الى الجزيرة العربية بادئا بصنعاء اليمن ليعمل فى مدارسها او فى النقل من التركية الى العربية، ولما شاع ان الضغط التركى سيخف باعلان الدستور عام ١٩٠٨ واستبشر هو خيرا بهذا رجع الى وطنه ومنه الى عاصمة الخلافة ليستجلي الأسرار والاخبار ويبدو أنه لم يكن مطمئنا فمضى الى القاهرة ليقيم فيها وينضم الى امثاله أحرار الفكر وأخذ يمارس الصحافة فى كبريات الصحف حتى عهد اليه لقاء بعض الأمراء العرب فعاد الى الرحيل والتجوال قبل الحرب العالمية الأولى فلقى المتاعب والمصاعب فى هذا

الشأن، ولما أعلنت الثورة العربية الكبرى وقع عليه الاختيار ليكون مع الدعاة لها والمبشرين بها فى مكة المكرمة فسارع الى القيام بهذه المهمة الشاقة وهذه التبعة الخطيرة وأصدر الحكم التركى فى غيابه حكما باعدامه، ولما أحس خدعة الاستعمار لاحتلال بلاده وتقاسمها فى أواخر الحرب عاد الى دمشق، وحينما انسحب الجيش التركى منها عاد اليها ولم يبق طويلا فان الانتداب الفرنسى قد اقتحم وطنه فرأى أن يعود الى القاهرة ويستقر فيها وأخذ يعمل فى الصحافة حينا، ولا بد من العودة الى ما لقى فى طريقه اليها مع تجار الابل فى الصحراء فقد خشى الرحيل علانية وكانت الطريق طويلة فلقى الهول والويل حتى قيل له: هذه أرض حطين فعاد بالخيال والخاطر الى معركتها المشهورة.

وخلع نعله وقبل تراب تلك الأرض ولما مر ببحيرة طبرية وقف متأملا وهو يرنو الى صفحات مياههامن ظلام أولئك الابطال الذين خاضوا معركة حطين باقدام الفدائيين، هل تنطبع على مياه طبرية صور هؤلاء الأبطال؟ وقد عادت الى خاطره صورة البطل صلاح الدين الذى تصدى للمعتدين وردهم على أعقابهم خاسرين خائبين، ثم القى هذا البطل نظرات على ما كان يحيط بالامة من أسباب الضعف والخلاف والتفرقة وأيقظ فيها الوعى والعزم والنخوة والايمان ليرجع بها الى الله بعد أن كادت تنساه.

ولم يترك الخطيب هذه الرحلة دون تصويرها والتعبير عنها بشعوره وتفكيره فى كتاب.

ولما استقر فى القاهرة اسس المكتبة السلفية والمطبعة السلفية عاملا على خدمة العروبة والاسلام، على ان القارئ المتتبع لما جاء فى مجلتيه: **الزهراء والفتح** يتبين جهاده الطويل فى نشر الوعى والتبصير لامته بما كان يحيط بها من شر ومنكر وقد شاركه فى موضوعات المجلتين نفر من كبار الكتاب والمفكرين والشعراء فى طليعتهم أحمد تيمور والراجكوتي والكرملي وأحمد شوقي وغيرهم وقد أمتلات المجلتان بالتنويه والاشارة بمآثر العرب وتاريخ بلادهم وما تركوا من آثار ومآثر باقية على ترادف العصور.

ولا ينسى المتتبع للحركات التحريرية والاصلاحية هذا كله وكيف كان محب الدين الخطيب يقاوم فى اثناء ذلك كل من اراد انحرافا بالعروبة والاسلام، ويكشف مرامى الدعاة للعامية والمتحاملين على الدين وتعاليمه ويعتز بعبقرية اللغة وخلود العروبة داعيا الى الاستمساك بتراث الضاد الذى يدل على اهلها.

ولكم رأيناه فى ليله ونهاره عاكفا فى مكتبته تحت داره على أوراق بين يديه وكأنه متعبد فى محراب وعليه رداؤه الابيض السابغ يستحث جهده لاكماله قبل أن يغيب عن الدنيا.

وهل يفوت الواقف على جهاد الخطيب بقلمه وبرهانه وثقافته وقوفه فى وجوه أدعياء التجديد الذين دعوا للتغريب والاخذ بكل ما جاء من الغرب فمن أقوال الخطيب فى هذا الصدد: أن الغرب لا يريد خيرا للعرب الذين يقلدونه بكل ما يرسل اليهم فعلى الامة العربية أن تأخذ ماينفعها فى تطورها وتقدمها وتنبذ المساوىء وما أشد حاجتها الى محاكاة غيرها بالصناعة والنظام فى حياتها وأعمالها.

ومن أقوال الخطيب فى تبيان الغرض من انشاء مجلتيه والعمل فى الصحافة توخى الحقائق فى علوم العرب وآدابهم ومقومات حضارتهم مستعينا بأقلام ذوى العقيدة القومية وأهل الاختصاص ونقد ما يردد المستشرقون عنا فى دراساتهم ومؤلفاتهم، وخلاصة الكلام كانت صحفه تمثل اتجاهه الصحيح فى خلق فكر عربى اسلامى صحيح يقاوم التيارات التى كانت تواجه العرب والمسلمين.

ومما أثر عن الخطيب قوله: أن الناطقين بالضاد لا تثبت لهم نهضة ما لم تقم على دعامتين إحداهما المرونة فى الاقتباس مما فى حضارات الأمم الاجنبة.من وسائل القوة وعلم الادارة وانصراف الافراد الى الاختصاص بعلوم واعمال جادة متقنة.

ويطول المجال اذا عددنا مقالاته فى العربية وقوميتها والحفاظ عليها وأن لغتها تمثل أمتها وربما كانت أغنى من أية لغة أخرى.

وبعد فالمجلات التى أشرف على اخراجها كانت تصرفه عن التأليف الغزير فلم ينشر من كتبه المطبوعة إلا القليل منها: اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب. وتاريخ مدينة الزهراء والاندلس والرعيل الاول فى الاسلام والازهر فى ماضيه وحاضره من وجهة نظره فى عصره وذكرى موقعة حطين ونقل الخطيب عن التركية التى أجادها كتاب « سرائر القرآن » وغيره، كما أصدر « الحديقة » فى كتيبات وفى عدة اجزاء بلغت الثلاثة عشر جزءاً احتوت روائع فى لغة العرب وآدابهم.

وفى تحقيق التراث كانت لمحب الدين الخطيب مشاركة قديمة طويلة لكنها متقطعة اذ كان هذا المحب يؤثر غيره على نفسه فيعينه على نشر مخطوطة بكل عناية وإخلاص، أما تحقيقاته هو فلم تكن ضخمة ولا كبيرة لان شؤون المجلات التى كان يشرف عليها بنفسه والمطبعة التى رافقها فى معيشته وتكاليفها كانت تشغله عن التراث الذى أحبه ودعا للمحافظة عليه.

وفتحت مصر الكريمة ذراعيها حفية بنزيلها الخطيب الذى ملك النفوس بمروءته وأدبه وقلمه الحر الرصين واستهوى المسامع بخطبه الرائعة وأحاديثه الشائقة وقدر الشيخ محمد رشيد رضا ثقافة الخطيب الدينية والفكرية، فعهد اليه بالتدريس والتوجيه وكان الاستاذ محب الدين فى أثناء ذلك لا يفتر نشاطه الوطنى بين اخوانه وجيرانه فى أرجاء البلاد العربية.

لم يكن سياساً محترفاً يخفق فى الآفاق مستجيباً للتيارات الحزبية والدواعى الزمنية وإنما كان وطنياً مثالياً يسعى إلى خير الأمه والوطن ويؤمن بالعروبة مرتقياً صباحها الموعود وفى سبيل هذه الأمانى الغالية كنت تجده يوماً فى اليمن وآخر فى نجد وحينا فى العراق بل كانت له فى إبان المحن والملمات يد بيضاء فى إنقاذ كثير من ساسة العرب من السجن والإعدام وقد عرف مثلهم عذاب الحبس والتشريد فى سبيل وطنيته ومن أجل أهدافه الاصلاحية.

هذا هو الخطيب: محب الدين الذى أحب أمته ولغته ووقف عليها علمه وحياته وزهد فيما أقبل عليه أنداده من العلماء

ولاعجب إذا عده الثقات من المجاهدين الذين شهدوا كفاحه وسعيه من أعلام العروبة والاسلام وقد بقيت ذكراه رفافة على ضفاف النيل حتى جاء أجله وطواه الردى بعد الثمانين ولئن لم يكرم الخطيب هذا فى حياته فقد دخل التاريخ مع الخالدين من بابه الكن.

* * *

obeikandl.com